المحاضرة الثالثة:

السياق المفهوم والتصور

عناصر المحاضرة:

1. **مقدمة**
2. **مفهوم السياق**
3. **السياق عند البلاغيين العرب**
4. **السياق عند الغرب**

مقدمة:

ظلت اللسانيات الحديثة متمسكة بخيار دراسة اللغة من الجانب النظري، مركزة على ضرورة دراسة المعنى في حدود الأفكار والتصورات، مما وسم الدرس اللساني بنوع من الصورية التي أسقطت كل ما يحيط بهذه اللغة من عوامل، أصرت الدراسات اللاحقة على أخذها بعين الاعتبار، فهي وسيط مهم لفهم هذه اللغة، وتأويلها على الوجه الصحيح، وعليه فإن وحدات الكلامية للغة الطبيعية ليست مجرد سلسلة أو خيوطا من صنع الكلمات، فهناك مكون لا كلامي يفرض دائما و بالضرورة فوق المكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية.

إن هذه المميزات غير الكلامية للوحدة الكلامية مهمة في تحديد معناها كأهمية معنى الكلمة والمعنى النحوي ويدخل كلاهما في المكون الكلامي،فالناظر في اللغة على وجه التقعيد والوصف والتفسير ينتهي بالضرورة إلى اعتبار المتغيرات الخارجية التي تكتنف المادة اللغوية واستعمالاتها، وذلك لأن المعنى القاموسي أو المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام، فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى، بل هي جزء من معنى الكلام كشخصية المتكلم وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به، وهو ما اصطلح عليه بالسياق، فما هو السياق؟

1. مفهوم السياق :

1-1- عند البلاغيين العرب:

لقد أثارت فكرة المقام أو مقتضى الحال، اهتمام الكثير من الدارسين العرب، الذين ربطوه ببلاغة القول، وفصاحة اللسان؛إذ جعلوها«عنواناً للعلاقة بين الخطيب والمستمع، فالبلاغيون العرب وإن لم يهتموا كثيراً بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي؛حاولوا

أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال ملاحظات كثيرة، فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين ...»[1] ؛غير أن التأصيل لهذا المصطلح في البلاغة العربية، لم يؤخذ صورته الواضحة، إلاّ بعد أن مرّ بمرحلتين، هما المرحلتان التي مرت بهما أيضاً البلاغة في نشأتها وتطورها :

أولاً: مرحلة النشأة والتأصيل:

ويمكن أن نسبر أغوار المصطلح (مقتضى الحال) مع ما ذكره الجاحظ(255هـ) في كتابه" البيان والتبيين " من كلام "بشر بن المعتمر" عندما مرّ بإبراهيم بن جلبة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فقال: «فكن في ثلاث منازل ،فإن أولى الثلاثة أن يكون لفظك رشيقاً عذباً،وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً ...إما عند الخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت...مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال ...»[2]؛ فما يفهم من قول بشر أن المقام الواجب مراعاته هو مقام المخاطَب، من حيث طبقته ؛وهي الفكرة التي سيطرت على التفكير البلاغي في هذه المرحلة.

كما أن الغاية المتوخاة – فيما يبدو– هي إحراز المنفعة من المخاطَب، وتجنب غضبه من زاوية اقتناء حريص للألفاظ ، تجنباً للوحشية التي توقع اللبس والغموض؛ وهذا ما أكده أبو الهلال العسكري بقوله:«ينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها و بين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً،حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات،وأقدار المستمعين على أقدار الحالات»[3].

لهذا فقد ارتبطت فكرة "مقتضى الحال" ، بقضية أخرى تتمحور أساساً حول قدرة الخطيب على اختيار الوسيلة الأنجع لإيصال رسالته؛ اعتماداً على طبقة المخاطَب، من

---

[1] محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي.دار الثقافة .الدار البيضاء.ط1،1993. ص142

[2] الجاحظ : البيان والتبيين.دار إحياء التراث العربي.لبنان.د/ط.د/ت. ص 95

[3] العسكري أبو الهلال :الصناعتين. تح / علي محمد البجاري ومحمد أبو الفضل إبراهيم .دار الفكر العربي.لبنان.ط2 د/ت ،ص90

خلال الإيجاز والأطناب؛ فالإيجاز– من منظورهم –ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الثقافة العالية ،بينما الإطالة ففي مخاطبة العوام ؛و هو ما يؤكد أن فكرة مقتضى الحال لم تتسع في هذه المرحلة إلاّ لطرف واحد وهو المخاطَب .

ثانياً:مرحلة الضبط :

وفيها أحيطت فكرة المقام (مقتضي الحال) باهتمام أكبر، نظراً لاهتمام العرب بتحسين كلامهم وإعلاء شأنه، وفي هذا الإطار يجمع السكاكي(555ه) جل مباحث النظم عند "عبد القاهر الجرجاني" مضيفاً إليها مباحث أخرى ؛«إذ تعامل مع هذه المباحث على أنها المقتضيات ،مصنفاً إياها في الجملة الخبرية بحسب مكوناتها (الإسناد،المسند إليه، المسند)، وانتظامها مع جملة أخرى، مؤكداً أن مجيء كل مقتضى على ما تمليه الحال هو مدار الكلام ...»[4]؛ حتى يبدو وكأنه يربط مقتضيات الخطاب المقامية، بغاية إقناع السامع ، حمله على التصديق أو التكذيب .

الأمر الذي يؤكد سيطرة المنهج التقعيدي والغاية التعليمية على هذه المرحلة؛ والذي أدى إلى حصر المقام وتثبيته في صيغة قاعدة صارمة "إذا كان المقام كذا كان المقتضى كذا"،وإن كان بعض البلاغيين اللاحقين قد أضافوا إلى المعادلة السابقة طرفاً آخراً،وهو "المطابقة" والتي تعني«موافقة النص مع الهدف والمقصد والغرض، بما يقابل ذلك هواتف المتفنن (الخطيب)، وحاجة المتلقي»[5].

تجدر الإشارة إلى أن مصطلح "السياق" يعد من أكثر المصطلحات شيوعاً عند الكثير من الباحثين العرب، الذين فضلوا استعمال المصطلح «لدلالته على الممارسة المتصلة للفعل اللغوي الذي يتجاوز مجرد التلفظ بالخطاب، بدءاً من لحظة إعمال الفكر لإنتاجه»[6]،

---

[4] جميل عبد المجيد :البلاغة والاتصال . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . لبنان. د/ط.2000.ص33.

[5] حمدي محمد بركات أبو علي :البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق . دار وائل للنشر والتوزيع .الأردن. ط1.2003.ص75

[6] عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب.دار الكتاب الجديدة المتحدة.لبنان.ط1. 2004 ص41

والذي يهدف أول ما يهدف إلى استمالة المرسل إليه والتأثير فيه، وهو رأي لا ينفي سلامة آراء الأطراف الأخرى، التي تبنت مصطلح المقام وعلى رأسهم "تمام حسان" الذي رأى أن فهم «البلاغيين (للمقام كان) فهماً سلوكياً قالبياً نمطياً مجرداً، ثم قالوا لكل مقام مقال...فهذه المقامات نماذج مجردة...فالذي أقصده بالمقام ...هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءاً منه،كما يعتبر السامع والكلام نفسه،وغيرهما مما له اتصال بالتكلم (كذلك) ...وعلى الرغم من هذا ...أجد لفظ المقام أصلح ...»[7]، على الرغم من وجود مصطلحات أخرى تستعمل استعمال المقام، كالحال الموضع والمقدار والأقدار و المشاكلة والمطابقة والاقتضاء والظرف وجميعها فروع عن أصل ثابت ظن مع اختلاف في بعض الجزئيات.

ويمكن التمثيل للرؤية البلاغية العربية لمفهوم المقام بالمخطط التالي [8]:

[7] حسان تمام : الأصول – ابستمولوجية الفكر اللغوي عند العرب : النحو، فقه اللغة، البلاغة – عالم الكتب القاهرة. د/ط. 1425هـ/ 2004م، ص332.

[8] جميل عبد المجيد :البلاغة والاتصال.دار غريب للطباعة والنشر.لو نجمان. مصر.ط1 .1994ص131.

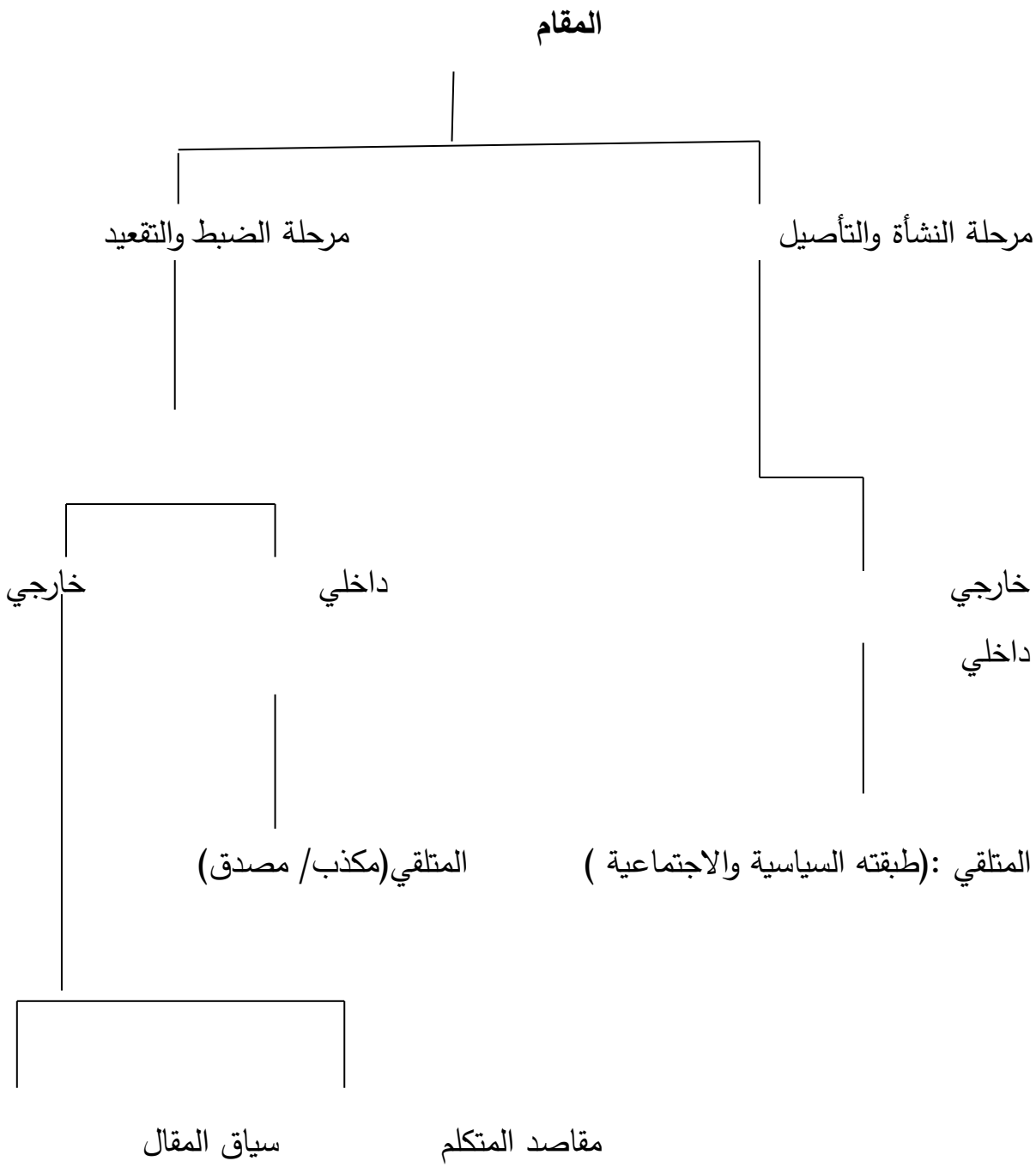

مخطط يمثل تصور البلاغيين العرب للمقام

1-2- السياق عند اللسانيين الغرب :

لقد حظي السياق باهتمام أغلب المدارس اللسانية الحديثة ،ولكن السبق في استخدام المصطلح كان لأستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية "مالينوفسكي" (**B. *Malinowski***) في بداية الثلاثينيات؛ في حين كان فضل التأصيل له، لزميله "فيرث"(**Firth**) الذي أعطى أبعاداً موسعة للسياق باعتباره«مجموعة من العناصر والملابسات التي تتضح وقت الكلام الفعلي،هذه الظروف أو الملابسات تتمثل في:

1- شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي،وشخصيات من شهد الكلام إن وجدوا ودورهم.

2- العوامل والظواهر الاجتماعية ،والمناخية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي وقت الكلام .

3- أثر الكلام في المشتركين، كالاقتناع أو الألم ، أو الإغراء أو الضحك ، أو غير ذلك»[9].

وهو نفس المفهوم الذي تبنته النظرية التداولية حديثاً، بل واعتبرته أساساً من أسسها المكينة ؛ وإن أصر الكثير من الدارسين على ربط السياق بخاصية الإنجاز من منطلق أن«أحوال المتكلم والمخاطب ...تكون فقط ...أحوال إنجاز ...»[10]، إذ يمكن أن يسمع المخاطب رسالة المتكلم، وهو في حالة لاوعي ،كأن يكون شبه نائم،دون أن يعير لها أدنى اهتمام،وبالتالي لا تتحقق أي إنجازية للرسالة .

لذلك فإن أهم خاصية يتميز بها السياق ،هي خاصية الديناميكية المحركة، ،التي تتولد من التغيرات المتتالية لأحوال الكلام، التي تشمل « المكان والزمان، طبيعة النص،

---

[9] فان ديك :النص والسياق – استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي –تر/ عبد القادر قنيني.إفريقيا الشرق. المغرب.د/ط، 2000 .ص261

عبد المنعم خليل:نظرية السياق بين القدماء والمحدثين–دراسة لغوية نحوية دلالية–دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر .الإسكندرية.ط1. 2007.ص.[10]54

ومجمل الظروف المحيطة بعملية التواصل»[11]، وهو ما يجعل السياق «ليس مجرد حالة تلفظ ،وإنما هو الأقل متوالية من أحوال التلفظ...(إذ أن) كل سياق هو عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث»[12] .

ويمكن تلخيص مفهوم للسياق من المنظور التداولي وفق المخطط التالي[13]:

---

[11] Marie-Anne Paveau et Georges-élia Sarfati : les grandes théories de la linguistique – de la gramaire comparée à la pragmatique- édition Armand colin , France. décembre 2003,p208 .

[12] فان ديك :النص والسياق – استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي –تر/ عبد القادر قنيني. ص 258.

[13] جميل عبد المجيد :البلاغة والاتصال . ص133

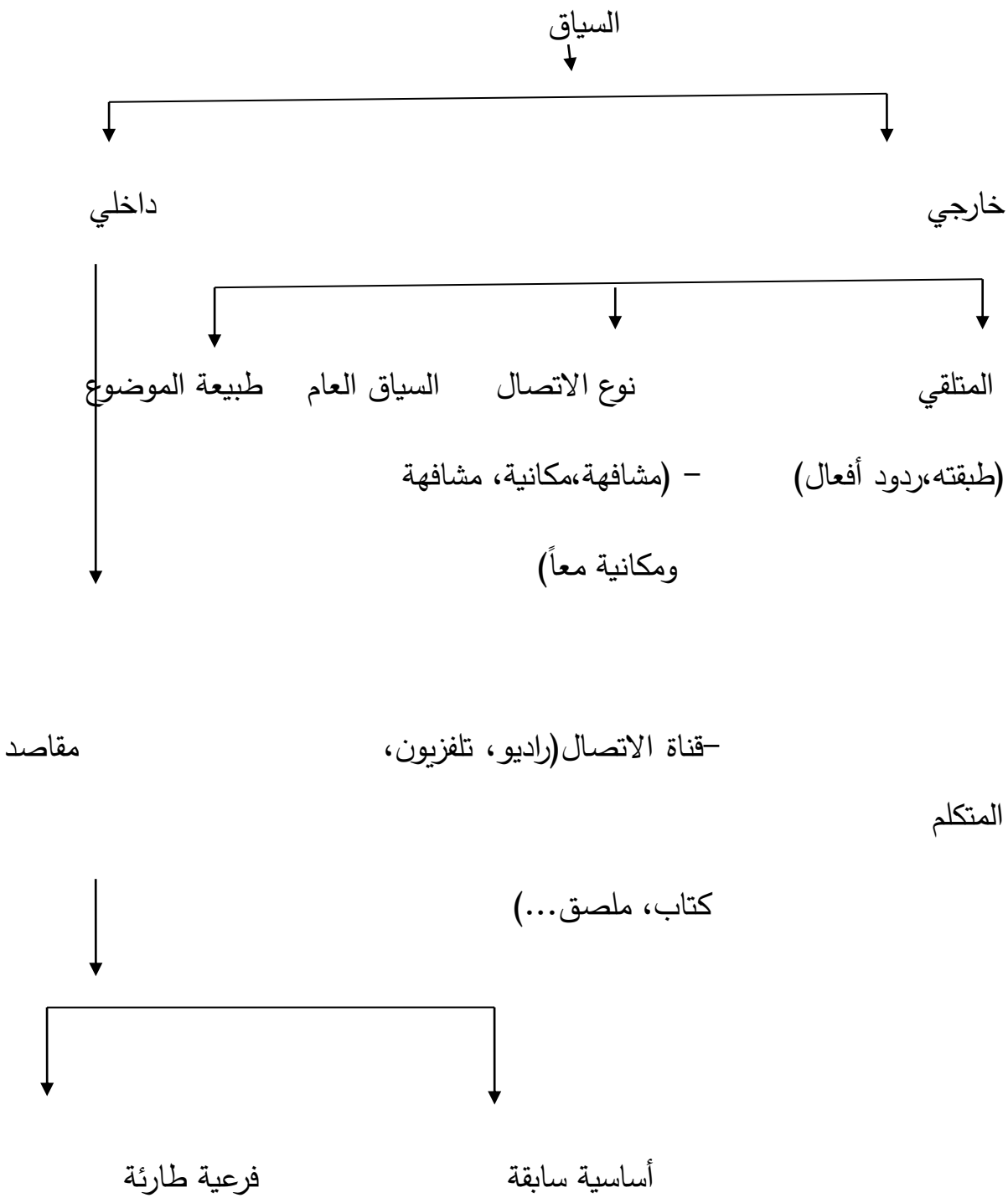

مخطط يمثل مفهوم السياق من المنظور التداولي